صور من العصر العباسي :

أطبـــاء الخلفاء العباسيين

للاســـتاذ صلاح الدين المنجد

— ١ —

كان أهل جنديسابور يعنون بالطب . وكان لهم حذق بهذه الصناعة وعلم من زمن الأكاسرة . ذلك أن سابور لما تزوج ابنة القيصر فيليبس بعد افتتاحه انطاكية بنى لها مدينة على شكل قسطنطينية ، وهى مدينة جنديسابور ونقلها إليها ، فانتقل معها من كل صنف من أهل بلدها ممن هى محتاجة إليه — ومنهم أطباء أفاضل . فلما أقاموا فيها ، بدأوا يعلمون أحداثاً من أهلها ، ولم يزل أمرهم يقوى فى العلم ، ويتزايدون فيه ، ويرتبون قوانين العلاج على مقتضى أمزجة بلدانهم ، حتى برزوا فى الفضائل ، وصار أناس يفضلون طريقتهم على اليونانيين والهند ، لأنهم أخذوا فضائل كل فرقة فزادوا عليها بما استخرجوه من قبل نفوسهم ، فرتبوا لهم دساتير وقوانين وكتباً جموا فيها كل حسنة . ولم يزالوا كذلك حتى جاءت الدولة العباسية ، فأصبح أهل جنديسابور أطباء للخلافة والخلفاء ما عدا قلائل منهم[1] .

وقد كان هؤلاء الأطباء من أهل جنديسابور ينالون منزلة كبرى فى كل مكان . وكان وجودهم فى بلد ما سبباً لكساد الأطباء الآخرين . وقد ذكر الجاحظ عن أسد بن جانى الطبيب البغدادى أنه أكسد مرة . فقال له قائل : السنة وبئة والأمراض فاشية ، وأنت عالم ، ولك صبر وخدمة ، ولك بيان ومعرفة . فمن أين تؤتى فى هذا الكساد ؟ قال : أما (واحدة) فإنى عندهم مسلم ، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب ، لا بل قبل أن أخلق أن المسلمين لا يفلحون فى الطب . واسمى (ثانية) أسد . وكان ينبغى أن يكون صليبا ومرايل ويوحنا ... وكنيتى أبو الحارث ، وكان ينبغى أن تكون (أبو عيسى) (وأبو زكريا) ... وعلىّ رداء قطن أبيض ، وكان ينبغى أن يكون رداء حرير أسود . (وأخيراً) لفظى لفظ عربى ، وكان ينبغى أن تكون لغتى لغة أهل جنديسابور[2] .

والحق أن الخلفاء حفلوا بهؤلاء الأطباء . وكانت أسرة بختيشوع ذات مكانة كبرى عندهم ، ومنها كان أطباؤهم ووزراؤهم ومنها كان أيضاً الأطباء المحترفون ، وأطباء البيمارستانات ، ومعلمو الطب والفلسفة[3] .

***

أول من تقدم باحضار رأس هذه الأسرة إلى بغداد ، هو المنصور . فإنه لما بنى مدينة السلام بغداد سنة ثمان وأربعين ومائة للهجرة أدركه ضعف فى معدته وسوء استمراء وقلة شهوة . وكان كلما عالجه الأطباء ازداد مرضه ، فتقدم إلى الربيع بجمعهم ، فلما اجتمعوا قال لهم المنصور : أريد من الأطباء فى سائر المدن ، طبيباً ماهراً . فقالوا : ما فى عصرنا أفضل من جورجيس بن بختيشوع رئيس أطباء جنديسابور ؛ فهو ماهر فى الطب . فأمر المنصور باحضاره ، فأنفذه العامل بجنديسابور إلى حضرة الخلافة بعد ما امتنع عن الخروج ، ووصى ولده بختيشوع بالبيمارستان وأموره التى تتعلق به هناك . واستصحب معه تلميذيه إبراهيم وعيسى . فلما وصل إلى مدينة السلام أمر المنصور باحضاره . فلما أحضر دعا للمنصور بالفارسية والعربية . فعجب المنصور من حسن منطقه ومنظره ، وأمره بالجلوس ، وسأله عن أشياء أجابه عنها بسكون . فقال : قد ظفرت منك ياجورجيس بما كنت أطلب . وخبره بابتداء علته ، وكيف جرى أمره منذ ابتداء مرضه . فداواه حتى برىء وعاد إلى الصحة فأنزل فى أجمل موضع من دوره ، وأمر أن يجاب إلى كل ما يسأل . وأهدى إليه ثلاث جوار روميات حسان مع ثلاثة آلاف دينار . فأنكر جورجيس أمرهن وقال لتلميذه عيسى : يا تلميذ الشيطان ! لم أدخلت هؤلاء إلى منزلى ؟ ردهن إلى أصحابهن . فأعادهن . فسأله المنصور لم رددت الجوارى ؟ قال : لا يجوز أن يكون مثل هؤلاء فى منزلى ،

(١) تاريخ الحكماء (ليبسك) ص ١٣٣ .

(٢) انظر مقالة مايرهف فى محاضر جلسات الأكاديمية الروسية للعلوم مجلد ٢٣ سبتمبر ١٩٣٠ . ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتاب : « التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية » ١٩٤٠ .

لأنا معشر النصارى لا نتزوج أكثر من امرأة واحدة، فما دامت المرأة حية فلا نأخذ غيرها فحسن موقع هـذا من الخليفة، وأمر في الوقت أن يدخل جورجيس إلى حظاياه وحرمه بلا إذن، وزاد موضعه عنده.

وظل جورجيس يخدم المنصور حتى مرض سنة اثنتين وخمسين ومائة مرضاً صعباً. وكان المنصور يرسل إليه في كل يوم يتعرف خبره. فلما اشتد مرضه أمر بحمله على سرير إلى دار العامة وخرج ماشياً إليه وتعرف خبره وسأله عن حاله. فخبره جورجيس بها، وقال له: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في الانصراف إلى بلدي لأنظر أهلي وولدي؛ فإن مت قبرت مع آبائي. قال له: يا جورجيس اتق الله وأسلم، وأنا أضمن لك الجنة. قال جورجيس: قد رضيت حيث آبائي؛ في الجنة أو النار. ثم خلف بين يدي المنصور تلميذه عيسى، ومضى إلى جنديسابور ومعه عشرة آلاف دينار وخادم، فوصلها حياً[1].

وحل عيسى محل جورجيس. فأخذ يبسط يده في التشارر والأذية، خاصة على الأساقفة والطارئة، ومطالبتهم بالرشى وأخذ أموالهم. وكان فيه شرارة وطمع فلما خرج المنصور في بعض سفراته ووصل إلى قرب (نصيبين) كتب عيسى إلى مطران نصيبين يتهدده ويتوعده إن منع عنه ما التمسه. وكان عيسى قد التمس أن ينفذ له من آلات البيعة أشياء جليلة ثمينة لها قدر، وكتب في كتابه: أليس تعلم أن أمر الملك في يدي، إن أردت أمرضته، وإن أردت شفيته. فاحتال المطران في التوصل إلى الربيع وشرح له صورة الحال وأقرأه الكتاب، فأوصله الربيع إلى الخليفة، فأمر المنصور بأخذ جميع ما يملكه عيسى، وتأديبه، ونفيه، ففعل به ذلك[2].

ثم إن المنصور سأل عن جورجيس ليؤتى به. فامتنع لضعفه وأنفذ إلى الخليفة تلميذه إبراهيم. فقربه المنصور وأكرمه وخلع عليه، ووهب له مالا، واستخلصه لخدمته. ولم يزل في الخدمة إلى أن مات المنصور[3].

(١) عيون الأنباء ج ١ ص ١٣٤، وتاريخ الحكماء ص ١٦٠.
(٢) تاريخ الحكماء ص ٢٤٨.
(٣) عيون الأنبا ج ١ ص ١٢٥

وكان أبو قريش طبيب المهدي. وكان يعرف بعيسى الصيدلاني، ولم يكن طبيباً، وإنما كان صيدلانيا ضعيف الحال جداً، فتشكت حظية للمهدي ذات يوم، وتقدمت إلى جاريتها بأن تخرج القارورة إلى طبيب غريب لا يعرفها. وكان أبو قريش بالقرب من قصر المهدي. فلما وقع نظر الجارية عليه أرته القارورة، فقال لها: لمن هذا الماء؟ فقالت: لامرأة ضعيفة. فقال: بل للملكة عظيمة الشأن، وهي حبلى بملك! وكان هذا القول منه على سبيل الرزق. فانصرفت الجارية من عنده وأخبرت الحظية بما سمعته منه، ففرحت فرحاً شديداً، وقالت ينبغي أن تضعي علامة على دكانه حتى إذا صح قوله اتخذناه طبيبا لنا. وبعد مدة ظهر الحبل، وفرح به المهدي فرحاً شديداً؛ فانفذت الحظية إلى أبي قريش خلعتين فاخرتين وثلاثمائة دينار. وقالت: استمن بهذا على أمرك، فإن صح ما قلته استصحبناك. فعجب أبو قريش من ذلك وقال: هذا من عند الله، لأنني ما قلته للجارية إلا وقد كان هاجساً من غير أصل. ولما ولدت الحظية، وهي الخيزران، موسى الهادي، سُرّ المهدي به سروراً عظيما. وحدثته جاريته بالحديث، فاستدعى أبا قريش وخاطبه، فلم يجد عنده علماً بالصناعة، إلا شيئاً يسيراً من علم الصيدلة. إلا أنه اتخذه طبيباً لما جرى منه واستخصه وأكرمه غاية الإكرام وحظي عنده، وخاصة عندما علم أنه عنين[1].

***

واستبقاه الهادي، وظل مكرماً عنده. وعندما مرض الهادي جمع الأطباء وكان فيهم أبو قريش، فقال لهم: أنتم تأكلون أموالي وجوائزي وفي وقت الشدة تتغافلون عني. فقال له أبو قريش: علينا الاجتهاد، والله يهب السلامة[2].

ثم استدعى له بختيشوع بن جورجيس من جنديسابور، فداواه وشفي. ثم كادت له الخيزران فأعاده المهدي إلى جنديسابور[3].

وكان ممن حظي عند الهادي الطيفوري المتطبب، وكان

(١) عيون الأنبا ج ١ ص ١٥٣.
(٢) تاريخ الحكماء ص ٢٣١
(٣) المصدر السابق ص ١٠١.

حاذقاً ، وكان متطببه ومربيه فى رضاعه وطفولته وكبره . وهو جد إسرائيل بن زكريا الطيفورى طبيب الفتح بن خاقان[١] .

***

أما الرشيد ، فقد أعاد بختيشوع ؛ فقد مرض سنة ١٧٦ هـ . من صداع لحقه ، فقال ليحيى بن خالد : هؤلاء الأطباء ليسوا يفهمون شيئاً . فقال له يحيى : لما مرض أخوك الهادى ، أرسلوا إلى جنديسابور ، فأحضروا رجلا يُعرف ببختيشوع . فقال الرشيد : كيف أعاده وتركه ؟ قال لما رأى والدتك ، والطبيب عيسى أبا قريش يحسدانه ، أذن له بالإنصراف إلى بلده ، فأمر الرشيد بحمله . فورد بختيشوع ودخل على الرشيد فداواه . وأكرمه الرشيد وخلع عليه خِلعة سنية . ووهب له مالاً وافراً ، وقال له : تكون رئيس الأطباء ، ولك يسمون ويطيمون[٢] .

ثم حل جبرئيل بن بختيشوع عند الرشيد محل أبيه . وقد خص بادىء أمره بجعفر بن يحيى ؛ وذلك أن جعفر هذا مرض ، فتقدم الرشيد إلى بختيشوع بن جورجيس بأن يخدمه . وكان من أدب الطبيب إذا كان خاصاً بالملك أن لا يخدم أحداً من أصحابه إلا بأمره ، ولما أفاق جعفر من مرضه قال لبختيشوع : أريد أن تختار لى طبيباً ماهراً أكرمه وأحسن إليه . قال له بختيشوع . لست أعرف فى هؤلاء أحذق من ابنى جبرئيل . وهو من أمهر مَنْ فى الصناعة . فقال : أحضرنيه . فلما أحضره شكا إليه مرضاً كان يُخفيه ، فدبره فى مدة ثلاثة أيام وبرأ . فأحبه جعفر مثل نفسه وصيره رئيس الأطباء ، وكان لا يصبر عنه ساعة ، ومعه يأكل ويشرب[٣] .

وقد اتصل جبرئيل بالرشيد بسبب حظية له . فقد كان للرشيد حظية فُتن بها ، تمطت ذات يوم ورفعت يدها ، فبقيت منبسطة لا يمكنها ردها . والأطباء يعالجونها بالتمريخ والأدهان فلا ينفع ذلك شيئاً . فقال الرشيد لجعفر بن يحيى : قد بقيت هذه الصبية بعلتها . قال له جعفر : لى طبيب ماهر ، وهو ابن بختيشوع تدعوه وتخاطبه فى معنى هذا المرض ، فلعل عنده حيلة فى علاجه . فأمر بإحضاره . ولما حضر قال له الرشيد : ما اسمك ؟ قال : جبرئيل . قال : أى شىء تعرف من الطب ؟ قال : أبرّد الحار ، وأسخن البارد ، وأرطب اليابس ، وأجفف الرطب . فضحك الرشيد وسر . وشرح له حال الصبية . فقال جبرئيل : إن لم يسخط على أمير المؤمنين فلها عندى حيلة . قال له الرشيد : ما هى ؟ قال : تخرج الجارية إلى هنا بحضرة الجمع حتى أعمل ما أريده ، وتمهل على ولا تعجل بالسخط ، فأمر الرشيد بإحضار الجارية ، فخرجت ، وحين رآها جبرئيل أسرع إليها ونكس رأسه ، وأمسك ذيلها كأنه يريد أن يكشفها ، فارتجت الجارية ، ومن شدة الحياء والانزعاج استرسلت أعضاؤها ، وبسطت يدها إلى أسفل وأمسكت ذيلها . فقال جبرئيل : قد برأت يا أمير المؤمنين . فقال الرشيد للجارية : ابسطى يدك يمنة ويسرة ، ففعلت ، فعجب الرشيد وكل من كان حاضراً ، وأمر لجبرئيل فى الوقت بخمسمائة ألف درهم ، وأحبه ، وجعله رئيساً على جميع الأطباء[١] .

وكان محله يقوى ويعلو ، حتى أن الرشيد قال لأصحابه : كل من كانت له حاجة إلى فليخاطب فيها جبرئيل ، لأنى أفعل كل ما يسألنيه ويطلبه منى . فكان القواد يقصدونه فى كل أمورهم . ومنذ يوم خدم الرشيد إلى أن انقضت خمس عشرة سنة لم يمرض الرشيد ، فحظى عنده حظوة كبرى[٢] .

ونستطيع أن نعلم حال هذا الطبيب وأبوه وجده من كلمة له قالها لابراهيم بن المهدى : « إن عيش جبرئيل ، وبختيشوع أبيه ، وجورجيس جده ، لم يكن من الخلفاء ، وإنما كان من الخلفاء ، وولاة العهد ، وإخوة الخلفاء ، وعمومتها ، وقراباتها ، ووجوه مواليها ، وقوادها . ولى أبوان خدما الخلفاء وأفضلوا عليهما ، وأفضل عليهما غيرهم ممن هو دونهم . وقد أفضل على الخلفاء ، ورفعونى من حد الطب إلى المعاشرة والمسامرة ، وليس لأمير المؤمنين أخ ولا قرابة ولا قائد ولا عامل إلا وهو يداريني إن لم يكن مائلا بمحبته وشاكراً لى ، على علاج عالجته به ، ومحضر جميل حضرته له ، ووصفته وصفاً حسناً عند الخليفة فنفعه[٣] » .

(له بقية)

صلوح الدين المنجد

(١) عيون الأنباء ج ١ ص ١٥٣ .
(٢) تاريخ الحكماء ص ١٠١ ، وعيون الأنباء ج ١ ص ١٢٦ .
(٣) عيون الأنباء ج ١ ص ١٢٧ .

(١) تاريخ الحكماء ص ١٣٤ .
(٢) تاريخ الحكماء ص ١٣٥ .
(٣) المصدر السابق ص ١٣٩ .